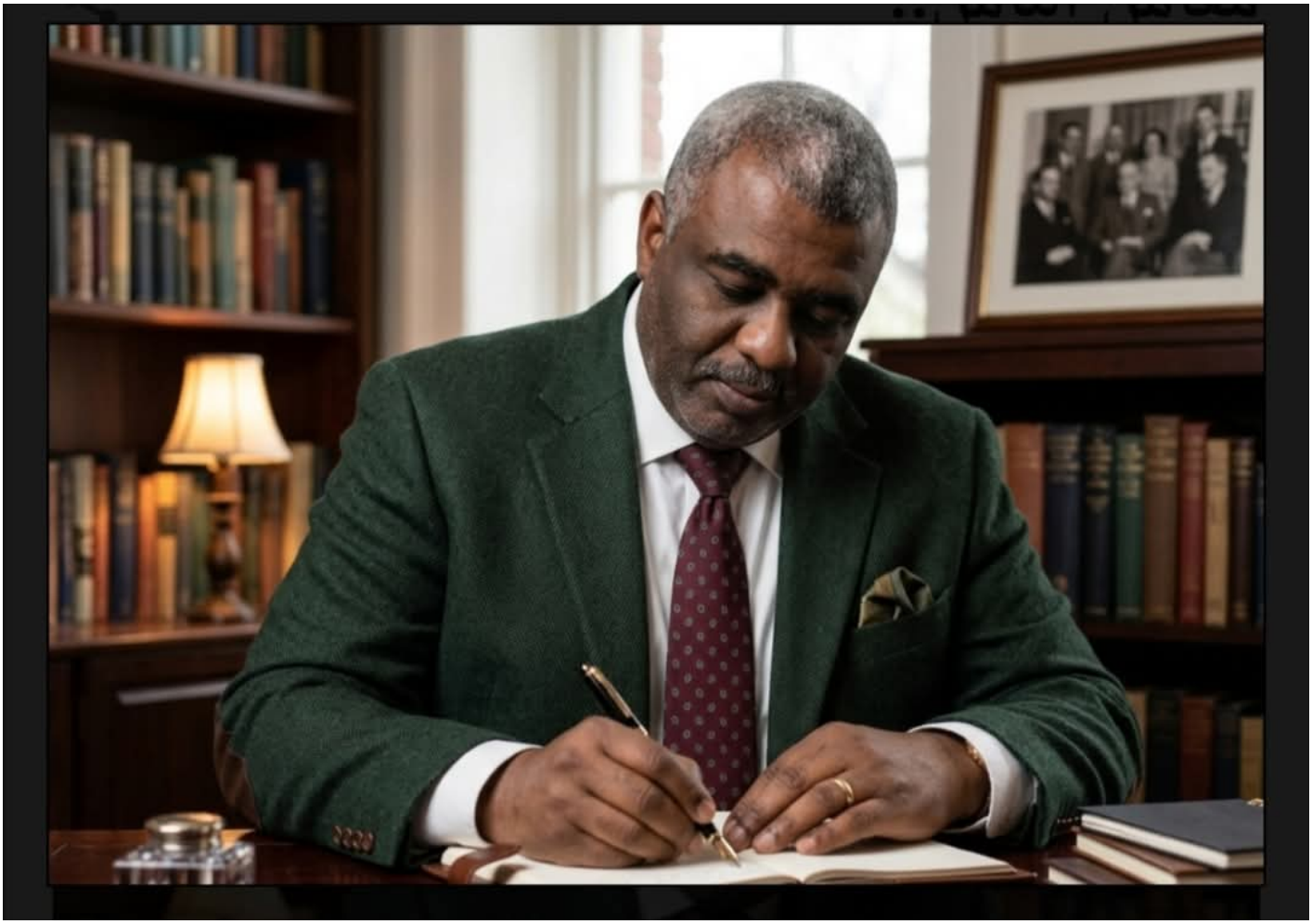
مقالات رأي

وجه الحقيقة | د. إبراهيم شقلاوي إيمانويل كانط ومستشفى التجاني الماحي

أضواء البيان • 21-11-2026 • 5 دقائق قراءة



ماذا لو عاد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط إلى الحياة، وجلس أمام بوابة مستشفى التجاني الماحي للطب النفسي بام درمان؟ ربما كان سيجد في طوابير المرضى سؤالا يتجاوز حدود الفلسفة، كيف يمكن أن يتحقق السلام، بينما لا يزال إنسان السودان يعيش الحرب بألآمها ومخازيها في ذاكرته وأعصابه وتفاصيل حياته اليومية؟

قد يبدو الجمع بين فيلسوف عاش في القرن الثامن عشر ومستشفى للطب النفسي في ام درمان أمرا بعيدا، لكن في تقديري ما يجمعهما هو سؤال السلام، ذلك السؤال الذي شغل كانط في مشروعه الفكري والإنساني الذي عرف بإسم "نحو السلام الدائم" ، وأصبح اليوم أكثر إلحاحا في السودان، حيث لم تعد الحرب مجرد مواجهة عسكرية، وإنما تجربة إنسانية ممتدة، تركت آثارها في النفوس قبل المباني والشوارع.

فقد أكدت الدكتورة مي محمد يوسف، مديرة مستشفى التجاني الماحي الثلاثاء ،ارتفاع متوسط المراجعين للعيادات الخارجية إلى ما بين 70 و80 حالة يوميا، مقارنة بنحو 60 حالة سابقا، مع تجاوز العدد 100 مراجع في بعض الأيام. وأوضحت أن زيادة الإقبال تتزامن مع عودة المواطنين إلى العاصمة، متوقعة استمرارها مع عودة مزيد من السودانيين من الخارج.

هذه الأرقام تعد نافذة نطل منها على الوجه الآخر للحرب، ذلك الدمار الذي لا تتحدث عنه نشرات الأخبار، وإنما يستقر في أعماق الإنسان. فالذين تعرضوا للتعذيب والانتهاكات، والذين عاشوا النزوح وفقدان الأمان، ومن شاهدوا انهيار حياتهم أمام أعينهم، لا يعودون جميعا إلى بيوتهم بالحالة النفسية التي غادروها بها.

لكن من المسؤول عن هذا الدمار والخراب الذي حاق بنفوس السودانيين وتفاصيل حياتهم، وانتزع منهم الأمن والاستقرار؟ إن هذه المسألة الأخلاقية تتجاوز مسؤولية المؤسسات الصحية إلى نخبة سياسية عجزت عن إدارة خلافاتها، وأخفقت في جعل السياسة سبيلا للتوافق والتداول السلمي للسلطة، فاستدعت القوة العسكرية إلى صراع الحكم، ووظفت مليشيا الدعم السريع ورقة في حساباتها السياسية، بدلا من بناء مشروع وطني يوحد الجميع حول الوطن ويحمي الدولة من الانزلاق إلى الهاوية.
ولعل حديث مريم الصادق المهدي عن تطوير الخيارات، إبان تعثر العملية السياسية يكشف جانبا من ذهنية تلك الفترة. فعندما تعجز السياسة عن إنتاج التوافق، وتستدعى القوة المسلحة إلى معادلة السلطة، يصبح الوطن رهين حسابات الخذلان. وقد جسدت حرب 15 أبريل 2023،الثمن الكارثي لهذا النهج، إذ تحولت الخلافات إلى حرب مفتوحة دفع السودانيون كلفتها من أمنهم وبيوتهم واستقرارهم النفسي. لذلك، لا تستطيع النخبة التي أسهمت خياراتها وممارساتها في صناعة مناخ الانفجار أن تتنصل من مسؤوليتها التاريخية، أو تتحدث عن التعافي دون محاسبة أو مراجعة جذرية لماضيها.

هنا نستعيد كانط ، الذي أدرك أن السلام لا يتحقق بمجرد غياب الحرب، وإنما يحتاج إلى تأسيس سياسي وقانوني وأخلاقي يضمن استمراره. ففي مشروعه نحو السلام الدائم، لم يكن السلام هدنة مؤقتة بين خصوم، بل نظاما يقوم على القانون واحترام الحقوق وتجاوز منطق القوة المنفلتة. ومن هذه الزاوية، فإن الفرق بين وقف الحرب وصناعة السلام يشبه الفرق بين إخلاء ساحة المعركة وإعادة الحياة إلى المجتمع.

غير أن التعافي لا يبدأ من المستشفيات، بل من ترميم النفوس واستعادة تماسك المجتمع الذي مزقته الحرب. وهذا يستدعي مشروعا وطنيا للاستشفاء النفسي والاجتماعي، تتكامل فيه أدوار الدولة والجامعات والإعلام والثقافة والفنون. فالإعلام مطالب بمغادرة ذاكرة المعارك والاستقطاب إلى معركة الوعي، وتفكيك خطاب الكراهية واستعادة الثقة بين السودانيين، فيما تصبح الدراما والمسرح والفنون أدوات لمداواة الذاكرة الجمعية، وإحياء قيم التضامن والانتماء. فإعادة بناء السودان لا تكتمل بإعمار ما دمرته الحرب، بل باستعادة الإنسان و أمنه وثقته وأمله.

كما يجب على الجامعات ومراكز البحوث القيام بواجباتها، في تحويل المعرفة إلى فعل مجتمعي، عبر دراسة آثار

الحرب النفسية والاجتماعية، وتأهيل الكوادر، وإطلاق برامج الدعم والتعافي . فالمعرفة التي لا تنحاز لقضايا المجتمع ولا تلامس جراحه تفقد جوهر رسالتها الوطنية.

من زاوية #وجه_الحقيقة،أن أرقام مستشفى التجاني الماحي تضع مشروعه كانط للسلام الدائم أمام اختبار سوداني بالغ القسوة. فحين تفشل النخبة في إدارة خلافاتها، يدفع المجتمع ثمن فشلها من أعصابه وذاكرته ومستقبله. وليس كافيا أن تتوقف الحرب في الميدان بينما تستمر في نفوس الذين عاشوها. إن بلادنا تحتاج اليوم إلى معركة وطنية من نوع آخر، معركة تستنهض الإعلام والفن والتعليم والثقافة والوعي، لاستعادة الإنسان. لأن السلام لا يكتمل إلا حين يستعاد الحق في الطمأنينة والحياة.

دمتم بخير وعافية

الخميس 19 نوفمبر 2026 م. Shglawi55@gmail.com

https://www.almuhit-adn-news.com/news/4462/وجه-الحقيقة-د-إبراهيم-شقلاوي-إيمانويل-كانط-ومستشفى-التجاني-الماحي

© 2026 شبكة المحيط الإعلامية — جميع الحقوق محفوظة